لمحة عن الحجّ ومناسكه

محمّد جواد حجّتي كرماني

١ ـ لمحة عن الحجّ

كلمة الحجّ وما يندرج تحتها من عناوين المناسك، تستطيع التعبير بنفسها ـ عن المحتوى العظيم لهذه الفريضة الإلهيّة المَلْأىٰ بالأسرار والرموز، والمكتظّة بالإشارات والكنايات.

فالحجّ ـ هذه اللّفظة القصيرة ذات النغم المحبّب، التي تستبطن معاني القصد والعزم والتصميم ـ يحمل معنى بشموخ التأريخ المعنويّ للبشرية، التأريخ المعنويّ الذي يضفي النظام على الحياة الإنسانية ـ سياسيّاً واجتماعيّاً ـ علىٰ أساس الحقّ والعدل.

والحجّ الذي يتكوّن ـ عموماً ـ من عناصر السكون والتأمّل والتدبّر والحركة والسعي والصراع، فيه إشارات جامعة وشاملة إلى السنن الإلهيّة الجارية على الصعيدين: التكويني والتشريعي.

لغة الحجّ لغة نموذجية، وأعماله ـ بتعبير متعارف ـ تمثيلية إيمائية يمكن أن تكون حاكية ومجسّدة

لتأريخ الأنبياء، وعالم الدنيا وعالم الآخرة.

كان الحجّ ـ هذه الفريضة الرمزية والمشحونة بالإشارات والشعارات ـ موضوعاً للدّراسة والتحليل من زوايا متعدّدة، وبنظرات مختلفة، من قبل الباحثين والكتّاب والمحلّلين، فرديّاً واجتماعيّاً، وعباديّاً وسياسيّاً، وعسكريّاً، وعالميّاً، ويتّصف بعض هذه البحوث والتحليلات بشمولية نسبية ناقصة لأبعاد الحجّ، بينما يختصّ البعض الآخر ببعد وجانب واحد، وبرؤية لا تتعدّىٰ حدود مجتمع معيّن. وقد أغفلت هذه التحليلات والدراسات، ذات البعد الواحد الشموليّةَ المحيّرة والمتناقضة ـ أحياناً ـ في ظاهرة الحجّ، التي تجعل الزاهدين المعرضين عن الدنيا غافلين عن أحد جانبي الشموليّة، وتجعل أصحاب السياسة والمتصدّين لإدارة الدول الإسلامية غافلين عن الجانب الآخر. ولهذا سوف نسعىٰ ـ في هذا المقال القصير ـ إلى اختصار الكلام، وأن نشير إشارة عابرة إلىٰ شموليّة الحجّ، ونحن علىٰ ثقة بأنّ أهل الفضل والعلم سوف لا يكتفون بهذا المختصر، ولكنّهم سيبذلون ما عندهم في توسيع البحث وإكماله وشرحه.

يُعدُّ الحجّ ـ من زاوية ـ اجتماعاً للطاهرين والأخيار، وأصحاب المعنى وطلاب الآخرة...، وهو اجتماع يغلب عليه طهر المقدّسين وملائكة الملإ الأعلى، الذين يحتشدون ـ كما هو المشهور ـ حول أوّل بيت وضع للناس، كالبحر المتلاطم، وما الحاجّ لبيت الله إلّا فطرة من هذا البحر.

وإنّ الحجّاج في هذا الاجتماع العظيم ـ منذ اللحظات الأُولى التي ينوون فيها الحجّ، ويرحلون عن أهاليهم وديارهم، وينقطعون عن كلّ ما يجذبهم إلى الدنيا، حتى الإحرام من الميقات، فالطواف، فالوقوف، فالرمي، وفي كلّ حلّ ومرتحل لهم يبحثون عن الله، ويطلبون الزلفى إليه.

وما مناسك الحجّ وشعائره إلّا

تجسيد لأحوال الإنسان الباحث عن ربّه، المتوجّه إليه أينما حلّ وارتحل، يلتمس سُبُلَ الوصول إليه، ويتعرّض لأنفاس رحمته، فالعاشق الذي أشرف على الهلاك من فراق محبوبه، وسُلب منه الاختيار، فهو مختلف الأطوار في سبيل الوصول إلى الحبيب، فتارة تراه متأمّلاً تعلوه السكينة، وتارة تراه مضطرباً غير مستقرّ، ينتقل من مكان إلىٰ مكان صباحاً ومساء، فربّما التجأ إلىٰ جبل، أو أفضى إلىٰ صحراء، لا يهدأ له بال ولا ينعم بقرار.

والحجّ ـ من هذه الزاوية ـ حركة إنسانيّة روحيّة، يقوم بها ـ في زمان واحد ومكان واحد ـ جمعٌ غفير من الناس، يأتون من جميع أرجاء الأرض وأقطارها إلى البيت الذي أُعِدّ للتقرّب إلى المبدإ الأعلى للخلق.

وهو ـ من هذه الزاوية أيضاً ـ مؤتمر لله يضمّ المخلصين والمتّقين والصالحين والعابدين والقانتين علىٰ وجه الأرض.

وما أكثر الاجتماعات والمؤتمرات العالميّة التي تعقد في مختلف شؤون الحياة الإنسانيّة؛ الدينيّة والسياسيّة والعسكريّة والتأريخيّة والأدبيّة، ولكنّك لن تجد في أيّ مكان ـ غير الحجّ ـ مؤتمراً للتوحيد والإخلاص والعبادة، ومؤتمراً لجهاد النفس والانقطاع عن الدنيا والاستعداد للآخرة، ومؤتمراً للسير إلى الله، وما يتضمّنه السير من مراقبة ومكاشفة.

ولن تجد ـ غير الحجّ ـ مؤتمراً يُذيب الفرد في الجماعة والجماعة في الفرد، فإذا بالأعمال الفرديّة تضمحلّ لتمتزج في أجواء الجماعة، وأجواء الجماعة تضمحلّ لتمتزج في الأعمال الفرديّة؛ بحيث أنّ الحاجّ يظلّ ـ في أيام الحجّ ـ عاكفاً علىٰ نفسه يحاول اكتشافها وسبر أغوارها، قد شُغِلَ بحديث النفس والمناجاة، وتصفية باطنه ممّا علق به من الشوائب، وهذا من قبيل الرهبانيّة التي يمارسها الرهبان المنقطعون عن هذا الخلق، وهي تدعو صاحبها إلى الخلوة والاعتزال ومفارقة الناس، وتؤكّد

فرديّة الفرد. ونجد ـ إلىٰ جانب هذا ومتزامناً معه ـ هذه الفرديّة تفنىٰ وتتلاشىٰ في الجماعة، في كلّ موقف من مواقف الحجّ العظيمة، وأكثر ما تتجلّىٰ روعة هذا الفناء في عرفات. وإفناء الفرديّة في العمل الجماعي يساهم في رسم الخطوط السياسيّة والاجتماعيّة للأمّة الإسلاميّة، كما يساهم في توحيدها، وسنشير إلىٰ هذا فيما بعد.

وفي الحجّ ـ من ناحية أُخرىٰ ـ أثر باق من أعماق التأريخ النورانيّ لأنبياء الله وأوليائه، من آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمّد صلى الله عليه وآله، وآله، وأصحابه، ففيه يتمّ إعادة بناء وصياغة هذا التأريخ الممتلئ بحوادث ومحاولات حُفت بالأخطار، أبطالها الأنبياء والأولياء، فالحجّ ـ من خلال هذه الرؤية ـ إعادة بناء لتأريخ الأنبياء.

والحجّ عبارة عن أعمال وألوان من السلوك تعود في جذورها التشريعيّة ـ طبقاً لما جاء به الكتاب، والأحاديث الواردة بطرق السنّة والشيعة ـ إلىٰ عهد آدم أبي البشر عليه السلام.

وقد طاف حول هذا البيت كلّ من جاء ـ بعده ـ من الأنبياء إلىٰ نبيّنا صلى الله عليه وآله وأدّوا مناسكهم علىٰ هذه الأرض المقدّسة، في عرفات، والمشعر، ومنىٰ.

والحجّ ـ علىٰ وجه التحديد ـ هو الرقيب علىٰ إعادة بناء وتجديد نظام مؤسّسة التوحيد، الذي تمّ بواسطة أبي الأنبياء إبراهيم خليل الله عليه السلام حين رفع قواعد البيت وطهّره للطائفين والعاكفين والركّع السجود، كما قصّ لنا ذلك القرآن الكريم. فتضحيات وجهود إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام وما راودهم خلال ذلك من انفعالات ومخاوف وآمال، تُعاد صياغتها وتتجدّد في كلّ منسك من مناسك الحجّ بالشكل الذي سنشير إليه فيما بعد.

وفي الحقيقة: إنّ إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد، وإنّ الملايين من حجّاج بيت الله العاشقين، ليقومون ـ في كلّ عام، ومن خلال مناسك الحجّ ـ بتجلية هذه

الشخصيّة العظيمة وإمدادها بالبقاء.

ولنتذكّر أن إبراهيم كان أبَ الأنبياء الموحّدين: موسىٰ، وعيسىٰ، ومحمّدصلوات الله عليهم أجمعين؛ وأنّ الأُمّة الإسلاميّة ـ دون بقية الأمم الأخرىٰ ـ هي وحدها التي تحتفي بذكرىٰ رائد التوحيد، وتحترمه بما يتناسب مقامه الشامخ، وتخلّد ذكره في مناسك الحجّ العظيمة بالعمل لا بالقول فحسب. وسوف نشير إلىٰ هذا الإحياء والتجديد أثناء الإشارة إلىٰ مضمون كلّ واحد من المناسك.

الحجّ ـ من زاوية أُخرىٰ ـ تدريب متعدّد الجوانب، أو هو ـ كما يُصطلح ـ استعراض شامل للنواحي السياسيّة، والعقائديّة، والعسكريّة؛ لبعث روح الحماس وإحياء الغيرة والحميّة الدينيّة في المجتمع الإسلامي.

ولتوضيح الصورة أكثر نتساءل: ما هو الهدف من الاستعراض العسكري، أو التدريب الذي تقوم به فرق إطفاء الحريق أو إنقاذ الغريق، أو الفرق الأُخرى المخصّصة لمواجهة الحوادث الجويّة والبريّة والبحريّة، مثلاً؟

والجواب: أنّ هذا الاستعراض والتدريب، وإن كان لا يتمّ علىٰ أرض الواقع، بل ينطلق في أرض مفروضة، ويتابع أهدافاً مُفْتَرَضة، لكنّهُ أمر ضروريّ جدّاً لإيجاد الكفاءة العسكريّة، والاستعداد القتالي، والمهارة، وسرعة الانتقال، وسرعة التصميم والعمل، وغيرها ممّا ينبغي توفّره فيمن يمارس هذه الأعمال المهمّة والمصيريّة.

وهكذا الحجّ، إذ إنّ له دوراً مهمّاً في رسم الطريق، ووضع الخطوط والملامح الرئيسية للحياة الإنسانيّة، التي هي مزيج من العمل، والصراع، والسعي، والمتابعة، وكونها كذلك يستتبع لا محالة كفّ النفس، والأخذ بزمامها، ولا يلائم التنعّم وطلب الراحة.

فالحجّ تدريب واستعراض وتعليم يستغرق عدّة أيام، ويبتغىٰ من ورائه إعداد الإنسان ليكون متمرّساً

ومهيّئاً لخوض الصراع الضاري في ميادين الحياة.

في الحجّ يتعلّم الإنسان أنّ عليه أن يترك وطنه وأهله وماله، ويقطع كل علائق الدنيا، ويتحمّل مصاعب السفر والسهر والقلق والغربة والهجرة، ويتخلّىٰ عن كلّ ما يرتبط بمظهره من اللباس والرياش، في سبيل الوصول إلىٰ حياة إنسانية إسلامية مليئة بالفخر.

يتعلّم أن عليه أن يُعرض عن كلّ ذلك، ويستجيب لدعوة الحقّ الأزليّ، فلا يسمع سائر الدعوات الأخرى الباطلة، ويدور مع الحقّ حيثما دار، ولا يسعىٰ ـ في هذه الحياة ـ إلّا إلى الطهارة والنزاهة والصدق والحقّ.

ويتعلّم أنّ عليه أن يمزج التوقّف والتّروّي بالسعي والعمل؛ لأن كلّاً من التوقّف والتروّي يجب أن يستتبع سعياً وعملاً، كما أنّ السعي والعمل لا يكونان إلّا بعد تروٍّ وتوقّف؛ ونظر في العواقب، وحسابٍ للمستقبل، فالتروّي دون عملٍ والعمل دون رويّة، آفتان للإنسان في دينه ودنياه.

في الحجّ يطوي الإنسان مراحل متعدّدة في أيّام قلائل، تعلّمه أنّ ما طواه منها يجب أن يكون مثالاً يحتديه في حياته.

الحجّ ـ بمنظار آخر ـ تمثيل لعرصات القيامة، وتجسيد لحشر الخلق، فالكلّ إلىٰ جهة واحدة، لا شيء يميّز بينهم، متوجّهون إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار، حشر عظيم في هذه الحياة الدنيا، ونموذج مصغّر عن الحشر الأكبر في الآخرة.

الرحيل عن الدار والأهل يشبه الموت الذي هو بداية الحياة الأُخرىٰ، ومواقف الحجّ ومناسكه، كلّ واحد منها يذكّر بمواقف العبد أمام مولاه في يوم القيامة، حيث ينتهي به المطاف إلى الردّ أو القبول: ﴿**فريق في الجنّة وفريق في السعير**﴾.

والحاج ـ من خلال هذه الرؤية التطبيقية بين مواقف الحجّ ومواقف القيامة في قلق واضطراب دائمين، واقف بين الخوف والرجاء فإلىٰ أيّ

نـاحية سـيتوجّه، ومـع أيّ فـريق سيحشر؟

وذلك لأنّ بـعض الحـجّاج ـ كـبعض مـن يحـشر يـوم القـيامة ـ سيؤخذون الى الجحيم، ولا يـزيدهم الحجّ غير تبار وتخسير.

وإنّ شرح مواقف الحجّ ومواقف القيامة، والتطبيق بينهما، وتجلية روعة هذا التطبيق، ليحتاج إلىٰ مقال مستقلّ، ولكن في هذه الإشارة كفاية للـيقظين الموقنين بالموت، والدائمين على التفكّر في الدار الآخـرة، يخـافون سـوء الحساب وسوء الدار.

والحـجّ ـ أخـيراً، ومـن خـلال رؤية أعمق ـ صعود للإنسان في مقابل هـبوطه التأريخـي، وتسـالم وتـعاون للبقاء في مقابل تنازع البقاء المـتأصّل في حياة الإنسان.

وهذه النـقطة جـديرة بـالعناية والتأمّل، ولهذا سـنتريّث في الحـديث عنها قليلاً:

لقـد بـدأ السـقوط والهـبوط الإنسـانيّ عـندما التـفتت البشريّة ـ بحكـم حـاجاتها الطـبيعية والفـطرية ـ إلىٰ ضرورات الحـياة، وسعت إلى استخدام الطبيعة من أجل مواصلة الحياة، وسرعان ما جعل هذا الاستخدامُ الإنسان مفتوناً بـالطبيعة، ودفعه خياله المطلق العنان إلىٰ طـلب الزيادة بعد الزيـادة، ومـن هـنا كـان الانحدار شيئاً فشيئاً، ثمّ اسـتمرّ هـذا الانحدار مع بروز الصراع والنزاع بين أفراد النوع الإنساني، وأخذ يتضاعف مع مرور الأيّام ﴿**ألهاكم التكـاثر...**﴾، وكان هذا منشأً لكلّ الحروب الطويلة المـدمّرة في التأريخ الإنسـاني الزاخـر بالحوادث والوقائع.

وأمّا الحجّ، فهو تـعليم، وتجـربة مـؤقّتة، ومـظهر للـمثل العـليا، يحثّ الإنسان علىٰ كبح جماح غـرائـز حبّ الزيـادة والمكـاثرة، ويـظلّ الإنسـان يـنهل مـن هـذا التـعليم ـ المحـدود زماناً ـ طوال عمره.

كما أنّ هـذه الرؤيـة... تـتّضح أيـضاً بـوصفه مـدرسة أخـلاقيّة ومـعنويّة، بـنّاءة ومـؤثّرة؛ فـالحجّ

بتهذيبه للنفس وتزكيته للأخلاق، وإحيائه للروح، يُطلق الإنسان، ويحرّره ممّا يكدّر صفاء روحه؛ من حرص وطمع وتكاثر وتفاخر وتكالب، وينقذه من السقوط، ويعرج به إلى الأعلىٰ والأوج.

وهذا العروج الإنساني إلى الأوج، وإن كان أخلاقيّاً وعباديّاً وعرفانيّاً في جوهره، إلّا أنّهُ أساس انتصار الإنسان على الصعيد السياسي،والعسكري، والاقتصادي... كما هو واضح عند أرباب الرأي والنظر.

الحجّ ـ من زاوية أُخرىٰ، وعلى المدى البعيد ـ يُعدُّ إعداداً لتأسيس حكومة عالميّة موحّدة، وإزالة الحدود الجغرافيّة، وإدارة المجتمعات البشرية من قبل حكومة عادلة عالمة مقتدرة. وكما نعلم فإنّهُ قد بشّر بفكرة الحكومة العالميّة الواحدة كثيرٌ من روّاد الفكر، وعلماء الاجتماع، والسياسيين، والفلاسفة في العالم.

ومع أنّ تحقيق هذه الفكرة في هذه القرون الأخيرة ـ التي يمكن عدّها آخر أدوار الترقّي البشري ـ أمرٌ متعذّر، إلّا أنّ تحقّق الأفكار الإلهيّة، وتطبيق الأهداف السماوية العظيمة، له أجل معيّن، ويتعاقب بشكل ينسجم والتأريخ البشريّ، ومن هذه الناحية فإنّ عرض الوحدة السياسيّة الاجتماعيّة من قبل الحجّاج، الذين يحضرون مراسم الحجّ من جميع أقطار الأرض، سيكون أحد العوامل المهمّة في تحقيق الجزء الأخير من هذه الوحدة.

والحجّ ـ على المدى القريب ـ يسعىٰ لوضع قضايا ومشاكل المجتمع الإسلامي ـ الداخلية والخارجيّة، اجتماعية كانت أو سياسيّة، أو اقتصاديّة ـ موضعَ البحث والمطالعة. ويخطّط لمواجهة الأعداء الذين نذروا أنفسهم لحرب الإسلام والمسلمين. ويحتضن كلّ أرباب الرأي والفكر، والمصلحين، والمؤرّخين، وعلماء الاجتماع، والسياسيّين، وعلماء الدين، وزعماء المذاهب، من كلّ أطراف

الأرض؛ لتتجدّد روابط الأُخوّة الإسلاميّة، وتشيع المودّة والمحبّة بينهم، وليتعرف كلّ منهم علىٰ ما يحمله الآخرون من أخلاق وآداب، وطبائع، وأفكار، وعقائد، وخُطَط واقتراحات، ثمّ ليصلوا من خلال المشاورة، واستطلاع الرأي، والبحث الجماعيّ المنسّق ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار مستجدّات العصر ومتغيّراته ـ إلىٰ طرق الحلول المناسبة، الشاملة، المتكاملة؛ وليقوموا ـ بعد ذلك ـ بإيصال ما حصلوا عليه من هذا السفر المبارك إلىٰ أسماع شعوبهم والمسلمين المقيمين في الدول غير الإسلاميّة، وإلىٰ أسماع العلماء وأرباب الرأي في كل أرجاء البلاد الإسلاميّة وغيرها، حتىٰ يتعرّفوا علىٰ آرائهم فيما سمعوه، ويستفيدوا منها.

وينبغي علىٰ هؤلاء أن يخضعوا هذا الارتباط العلمي، والاستطلاع، والحِجاج، والبحث الجماعيّ، لإدارة منظمة، ويقوموا بوضع نظام وقواعد لهذا البحث بشكل يكون معروفاً ومقبولاً لدى المسلمين، وبهذا يتمّ تعزيز الروابط بين الدول الإسلاميّة، ويُفسح الطريق أمام الوحدة المستقبليّة الكاملة للعالم الإسلاميّ.

والحجّ ـ مع حفظ كلّ ما فيه من نواح معنويّة وسياسيّة واجتماعيّة سبق ذكرها ـ يشتمل علىٰ جانب آخر، ألا وهو الرؤية الاقتصادية في الحجّ. والحجّ ـ من خلال هذه الرؤية ـ سوق حرّة للدول الإسلاميّة.

والرقي الاقتصادي لهذه الدول مرهون بتبادل المنتوجات الصناعيّة واليدوية والزراعيّة، وتبادل الخبرات في هذه المجالات. ولو أنّ دولة من هذه الدول انطوت علىٰ نفسها، وقطعت روابطها الاقتصادية مع سائر الدول الإسلاميّة، فإنّها ستكون عُرضةً للتخلّف الاقتصادي، أو الانجذاب إلىٰ فلك إحدى القوى الاقتصاديّة الكبرىٰ في العالم، والتبعيّة لها.

والحجّ ـ بصورته الفعليّة ـ لا ينسجم اقتصادياً مع الغايات التي يسعى إليها الاقتصاد الإسلاميّ، بل

هو ـ في أكثره ـ معرض ومكان لبيع وشراء السلع المستوردة من دول غير إسلاميّة، وهذا أمر طارئ على الحجّ أفرزته المشاكل السياسيّة التأريخيّة في العالم الإسلامي، وليس له ارتباط بنفس الحجّ.

فالحجّ ـ بنفسه ـ ملتقىً اقتصاديّ للدول الإسلاميّة، ولا ريب في أنّ له دوراً أساسيّاً ومؤثّراً في تسريع عجلة الاقتصاد، وإيصال العالم الإسلامي إلى الاكتفاء الذاتيّ، علميّاً، وصناعيّاً، وزراعيّاً.

نضيف إلىٰ كلّ ما مرّ أنّ الحجّ ـ كما تشهد به التجربة ـ عمل صحّيّ وعلاجيّ، يضمن سلامة أفراد الحجّاج، إذ لا شكّ في أنّ سفراً حيّاً مليئاً بالحركة والنشاط كهذا السفر، إضافةً إلىٰ أنهُ يدفع بالسموم المستقرّة في البدن إلى الخارج، وينظّم الدورة الدموية، ويساعد على تنشيط الدماغ والأعصاب، وذلك بسبب المجهود البدني والحركة الكثيرة، فإنّهُ ـ أي الحجّ ـ بما فيه من روحانيّة ومعنويّة يضفي على الزائر جوّاً روحانيّاً مؤثّراً يملأ نفسه صفاءً وقلبه راحة واطمئناناً، وينعكس هذا بشكل إيجابيّ علىٰ صحّته البدنيّة. وكلّ من وُفّق إلىٰ هذا السفر العظيم، لمس ذلك بالتجربة.

ونقول باختصار: إنّ الحجّ رهبانيّة إسلاميّة، فيه قوام الدنيا والدين، وهو كله منافع للناس، وذكر الله.

الحجّ عبادة وسياسة، سياحة وزيارة، اقتصاد وصحّة، الحجّ فرد ومجتمع، مادّة ومعنى، دنيا وآخرة، وهو كهذا العالم، وهذا الإنسان، مركّب ثنائيّ من جسم وروح.

وينبغي أن نُشير إلىٰ نقطة جديرة بالاهتمام، وهي: أنّ الحاجّ إذا لم يسعَ في إصلاح نفسه، وينعتقْ من أنانيّته، ويهتمّ بتزكية نفسه وتصفيتها، ويتدبّر في أسرار الحجّ ورموزه، وإذا لم يطهر ممّا إلتاث به من مساوئ الأخلاق وأمراض النفس، فإنّهُ سوف لن يصل إلىٰ أيّ منفعة من المنافع الآنفة الذكر.

لا في السياسة، ولا في الاقتصاد، ولا في جهاد الأعداء، ولا في الفكر، ولا في أيّ مجال آخر، وذلك لأنّ الإنسان إذا لم ينتصر علىٰ عدوّه الداخلي ـ وهو النفس الدائبة علىٰ معاداة الله وكلّ المظاهر الإلهيّة، والتي لا تبرح زائغة عن صراطه المستقيم ـ فإنّهُ ليس منتصراً.

والانتصار على العدوّ الخارجيّ معناه تضافر وتجسّد كلّ القوى المعادية لله والموجودة في كلّ نفس، وليس انتصاراً أن يظهر عدوّنا الداخليّ ويبرز. ففي الحقيقة أنّ كلّ واحد منّا يحمل في داخله عدوّاً من قبيل الطابور الخامس ـ إذا صحّ التعبير ـ وهو الأنا وحبّ الذات، وإذا لم يتمّ القضاء علىٰ هذا الطابور الخامس، الذي هو ـ بتعبير أدقّ ـ مقرّ قيادة العدو، فلن نكون بمأمن من شرّ العدوّ.

والمقصود: هو أنّ إعطاء الأهميّة للجانب المعنويّ من الحجّ، والاستناد إلى الزوايا العرفانيّة والأخرويّة، وإلى معاني ورموز وإشارات السير والسلوك الكامنة في الحجّ، ينبغي أن لا يمنع من الرؤية الاجتماعيّة والسياسية، وأن لا يحول دون النظر إلى الجوانب الدنيويّة الأُخرىٰ في الحجّ.

٢ ـ لمحة عن مناسك الحج

نقصد في هذا القسم من المقالة تطبيق ما عرضناه في القسم الأوّل منها وبشكل كلّي علىٰ كلّ منسك من مناسك الحجّ.

فلابدّ ـ إذن ـ من أن نبدأ بالكعبة:

البيت الذي عبّر عنه القرآن أنّهُ ﴿**أوّل بيت وضع للناس**﴾[1] بيت حجريّ بسيط، بني بهندسة معماريّة بدائيّة، تفتقد كلّ أنواع المظاهر والزينة ومع هذا كلّه فهو رمز للوحدة البشريّة، وشعار للأمن والأمان في المجتمع الإنسانيّ. هذا البيت العتيق ـ الذي هو أقدم معبد على وجه

الأرض، وقد أُعيد بناؤه على يد إبراهيم الخليل ـ هو الحمىٰ، والملجأ الدينيّ والكهف الاجتماعيّ الحصين لجميع الناس.

ولا يوجد في أيّ نقطة من هذا العالم ـ لقوم، أو قبيلة، أو عرق، أو طائفة ـ مركز فيه هذه المميّزات مع ما فيه من الجاذبية والمعنوية والحرمة والقدسيّة لهذا البيت.

ومراكز الأمن (الدول المحايدة) التي تُعدُّ ملجأً للمظلومين وحتّى المجرمين، ما هي إلّا من الإبداعات الحديثة في القرون المتأخّرة، وكما قال الطنطاوي: إنّ الله ألهم الناس أن يقوموا بعمل أوحاه إلىٰ نبيّه إبراهيم عليه السلام.

الحرم:

تحيط بالكعبة من جهاتها الستّ منطقة محرّمة، وهي الحرم الإلهيّ الآمن، وفي هذه المنطقة ـ التي ذكرت حدودها في الكتب الفقهيّة ـ تقع علىٰ عاتق الحجّاج بل وغيرهم، أحكامٌ ومسؤوليّات، منها عدم جواز التعرّض لأمن ما يضمّه الحرم: فنبات الحرم آمن، وحيوانه آمن، واللاجىء إليه آمن، والحرب فيه محرّمة و...، كلّ هذا رعاية لحريم بيت الله المطهّر، وإسباغاً للمعنويّة والقدّسيّة والإحترام علىٰ هذه البقعة، وليكون هذا المكان الواسع ـ إلىٰ حدّ ما ـ مكاناً يتميّز علىٰ كلّ ما سواه، خالصاً لمنافع الإنسان المادّية والمعنويّة.

فالحرم منطقة صلح كامل، وأمن كامل، وحبّ وتعاون كاملين، يخضع فيه الإنسان لسيطرة كاملة، فيمنع حتّىٰ من التعرّض للنبات والحيوان، فما بالك بأخيه الإنسان؟!

الإحرام:

من جملة الأفعال الواجبة لدخول الحرم، الإحرامُ، وما أَروع اتّحاد مادّة (الحرم) و(الإحرام)، ويمكننا القول ـ بتعبير أدقّ ـ إنّ الإحرام يُعدّ تمثيلاً للحرم في وجود المحرِم؛ فكأنّ الحاجّ الذي يلبس ثوبي

الإحرام يجسّد الحرم الإلهيّ الآمن في وجوده، ويعلن أنّ حدود وجوده منطقة محرّمة، منطقة صلح وسلام وأمن وأمان.

وهذا هو واقع الأمر؛ إذ يحرم على الحاجّ ـ بعد الإحرام ـ ارتكاب أربعة وعشرين شيئاً، فلا يجوز له حتّىٰ قطع شعرة من شعره، ولا يجوز له قلع واحد من أسنانه، ولا إخراج الدم من بدنه وبدن غيره، وليس له الحقّ في أن يتعرضّ لحيوان في الحرم ولو كان حشرة استقرّت علىٰ بدنه أو ثيابه، ويحرم عليه أن يجادل أحداً بقول: «بلى والله، ولا والله» ولو كان غير حاجّ، إلىٰ غير ذلك.

ولا يحقّ له ـ من ناحية أخرىٰ ـ أن يدور علىٰ محور الشهوة، بل ليس له الحقّ في أن يحوم حول مقدّماتها؛ كالخطبة لنفسه وغيره، وإجراء العقد كذلك، فلا يجوز له النظر بشهوة، ولا العمل الشهوانيّ (ولو كان محلّلاً قبل الإحرام)، بل يمنع حتّىٰ من التعطّر، وشمّ الروائح الطيّبة، وسدّ أنفه عن الروائح المنتنة، والاستظلال من الشمس، وتغطية رأسه، و...

وليس المقصود أن نقوم بتعداد كلّ محرّمات الإحرام، ولكنّا نريد من وراء ذلك تجسيد تلك الحالة المفعمة بالروحانيّة والتنزّه التي تستغرق كيان المحرم، فتجعل من وجوده حرماً إلهيّاً آمناً.

ونقول باختصار: إنّ الحاجّ ـ بعد الإحرام ـ يجد نفسه ملائكيّ الصفات، طاهراً من شوائب المادّة، من الشهوة والغضب، ومن كلّ ما يمثّل حيوانيته.

ومثل هذه الحالة لا يعفوها النسيان، بل تبقىٰ ملازمة لذاكرة الإنسان، منبعاً للمُثُل ومصدراً للموعظة، في جميع مستقبله، ولابدّ لتربية الإنسان ـ من سلوك طريقة تبقىٰ حيّة في ذاكرته على الدوام، ولهذا أُمر الحاجّ بمفارقة لباسه المخيط، حيث يخلع عن بدنه لباسه المعتاد، ويكتفي بقطعتين من لباس أبيض بسيط، علامةً علىٰ مفارقته لكلّ العلائق والروابط، وإعراضه عن كلّ مظاهر

الامتياز والتعالي والتفاخر، وهو بذلك يضع ـ تحت قدميه ـ كلّ الامتيازات التي أضفاها مصمّموا الأزياء والخيّاطون على آلاف من أنواع الملابس العسكريّة والدينيّة والعرقيّة والطائفيّة، وعلىٰ أنواع ثياب الملوك المتكبّرين، وأصحاب المناصب المدّعين.

وإذا بهذه الأُمم المختلفة، وهؤلاء الأفراد المختلفين، شؤوناً ومناصب، حكّاماً ومحكومين، ينصهرون في وحدة خالصة مُخْلَصة من كلّ غلّ وغشّ، ويظهرون بمظهر الاتّحاد والأُخوّة والمساواة، في شكل واحد ظاهر وطاهر، أبيض نورانيّ، إلهيّ، ومعرض هذه الوحدة صحراء أرض التوحيد المترامية الأطراف، والحرم الإلهيّ المقدّس.

ويظلّ هذا العرض ـ إلى الأبد ـ عالقاً في ذاكرة كل فرد من الحجّاج الذين حضروا هذا المشهد، كما يظلّ عالقاً في ذاكرة المجتمع الإسلامي، وذاكرة كلّ المجتمع البشريّ أيضاً، بوصفه لوحة رائعة منقطعة النظير، ملهمة للأجيال، ومشحونة بالدعوة إلى الصلح والسلام، والمعنويّة، والإخلاص، وعبادة الواحد الأحد.

التلبية:

«لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبّيك».

إذا ما استثنينا صلاة الطواف التي هي بهيئة الصلاة المتعارفة، فليس في فروض الحجّ فرض يكون من مقولة اللّفظ والكلام سوىٰ هذه الكلمات المدوّية، والملْأىٰ بالجلال والعظمة. ولا يجب على الحاجّ ـ في جميع مناسك الحجّ ـ قول أو دعاء أو ورد أو ذكر، غير التلبية. وقال الفقهاء: المقدار الواجب من التلبية هو هذه التلبيات الأربع الأولىٰ، لا غير.

ولهذه الترنيمة الرائعة المتناسقة ـ التي يردّدها الحجّاج بإخلاص منقطع النظير، وبصوت عالٍ

متناغم متكرّر ـ أثر في تلقين روح الطاعة واتّباع حكم الله، والاستجابة لدعوته، وهذا الأثر شيء لا يناله الوصف، و لا يسبر أعماقه قلم أو بيان.

وللكلام في الموضوع مجال واسع يضيق به هذا المقال.

عرفات:

أرض معرفة، أرض أوّل إنسان هبط، ثمّ أخذ في طريق الصعود، أرض آدم وإبراهيم ومحمد عليهم السلام، أرض تجلّىٰ فيها جبرئيل بحقيقته لنبيّنا صلى الله عليه وآله، أرض صحراوية قاحلة، تخلو من أيّ معلم أو بناء، فيها يفترش الإنسان الأرض ويلتحف السماء، فأيّ أرض هذه التي تضع الإنسان في صميم خلقه الطبيعي والحقيقيّ بهذا الشكل؟!

هنا ـ في عرفات ـ عصر التوبة والإنابة المضيء، وعهد إعادة بناء وتكوين الشخصيّة الجديدة، هنا المقرّ الأبديّ لإعلان شريعة الإسلام عبرَ آخر سفير من سفراء الوحي الإلهيّ. هنا يفنى الإنسان في هالة من العظمة والسكون، والإلهام والروحانيّة، والفكر والتدبّر، والمناجاة والدعاء والعبادة.

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «الحجّ عرفة».

ولو أنّك ـ في أوّل منازل الحجّ ـ لمست في روحك وقلبك التغيّر والتحوّل، ودفعك الوقوف في عرفات إلى التأني والتفكّر والتدبّر، ثمّ انتهىٰ بك الوقوف في المشعر إلىٰ إكمال ما بدأته في عرفات، فهذا يعني أنّ أساس سائر المناسك قد استقرّ وأحكم بما لا يقبل الزعزعة، وأنّ الوقوفين قد أُدّيا علىٰ أحسن وجه.

وقد أشرنا ـ آنفاً ـ إلىٰ أنّ التدبّر والتأمّل لابدّ من أن يكونا أساساً للحركة والانبعاث. والوقوفان هما أساس وجوهر مناسك الحجّ الشريفة؛ ولهذا فلا يوجد ركن يبطل الحجّ بتركه سهواً ودون تفريط، غير هذين الوقوفين[٢].

الحاجّ في عرفات يُلْهم من الأرض والسماء؛ يلهم من نفسه التي تطهّرت وتنزّهت، ويلهم من هذه

الأفواج التي تقاطرت من كلّ مكان، علىٰ اختلاف لغاتها وألوانها وأعراقها، ثمّ ظهرت بمظهر واحد، لتشغل بمعرفة أنفسها، وعالمها، وربّها.

وهناك نقطة أُخرىٰ جديرة بالتأمّل في صحراء عرفات، وهي أنّها تصوّر لنا عرصات المحشر، فإذا بالحاجّ ـ حيث تتمثّل يعينه صور القيامة والحساب ـ يستغرق في حالة من الانقطاع والتضرّع، تجعل منه ـ بحقّ ـ إنساناً آخر، إنساناً متعالياً متكاملاً، قد أقبل على الآخرة، وكان أهلاً لوصال الحبيب والتشرّف بدخول الحرم.

المشعر الحرام:

﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾[٣].

هذه الآية الكريمة تعني الحجّاج الذين أفاضوا إلى المشعر الحرام غروبَ اليوم التاسع من ذي الحجّة.

وللمشعر لون وعطر وإشراق، وله جاذبيّة خاصّة، وحالة خاصّة، فالمشعر حرم، وعرفات ليست من الحرم.

وأنت ـ أيّها الحاجّ ـ تحرم من حرم إلىٰ حرم ـ ولكي تكون مؤهّلاً لدخول الحرم، فإنّك عدت إلىٰ معرفة ذاتك، وأعدت بناءها خارج الحرم في صحراء عرفات، وهنا أنت تعزم ـ ليلاً ـ على الرحيل إلى حرم الله، فالمشعر حرم، ومنىٰ حرم، ومكّة حرم، وتطلب الإذن بالدخول مرحلة بعد مرحلة.

وها أنت تقضي ليلتك في المشعر الحرام بذكر الله، طبقاً لهذه الآية المباركة وللسنّة، وجرياً على السيرة المتعارفة، وتعدّ ما استطعت من قوّة وسلاح لمقارعة الشيطان. ومن السنّة أن تقوم بجمع أحجار الرمي من أرض المشعر الحرام، وهذا التشريع إعداد للأفراد من أجل مواجهة العدوّ، ويكون ذلك ليلاً وفي صمت، في الخفاء أو نصف الخفاء، وهذه الحالة من الخفاء أو نصف الخفاء محسوسة بالكامل لمن كانوا ليلةَ العاشر في

المشعر الحرام.

وأرض المشعر ـ هذه المنطقة الجبليّة الوعرة، بخلاف أرض عرفات ـ شاهدة على الآلاف والآلاف من الحجّاج الذين ينتشرون في أرجائها، فرادى، وجماعات من الثلاثة والأربعة، ليجمعوا الأحجار لمعركة الغد.

وتذكّر أنّك لن تكون جديراً بدخول المعركة إلّا بالوقوف في عرفات والمشعر، وتهذيب نفسك، والظفر بشخصيتك المعنويّة الجديدة.

منىٰ:

أرض الآمال، أرض معركة إبراهيم المنتصرة، وفيها يُؤدّىٰ أكثر مناسك الحج صعوبة في زمان يزيد علىٰ كلّ مدّة الحجّ، مع أنّ ما يؤدّىٰ فيها هو من أقصر الفروض، منىٰ أرض الصراع ضدّ الشيطان، وأرض القرابين، والتقصير، ووصل اللّيل بالنهار علىٰ حال من الخوف والرجاء، بذهنيّة ومعنويّات المجاهد الصامد الذي يدأب في ثلاثة أيام متوالية علىٰ إسناد المعركة وتغذيتها والاستمرار فيها حتّى الوصول إلى النصر المحتّم على العدوّ، ويواصل هذا الجهاد مشفوعاً بالنشاط والأمل والاجتهاد واليقظة.

في هذا المكان يحلّ للحاجّ ـ بعد التقصير ـ كثير من المحرّمات، على التفصيل المذكور في كتب الفقه، ويعود الحاجّ ـ بعد نحر أُضحيته ـ إلىٰ ما اعتاده من اللّباس، ليكون مستعدّاً لوصال الحبيب، والدخول إلىٰ حريم المعبود، والطواف ببيت الله، والسعي بين الصفا والمروة.

في منىٰ يقترن الجهاد أطراف النهار بالتدبّر آناءَ اللّيل، ويكون كل منهما مكمّلاً للآخر.

ويتوافد كثير من الحجّاج ـ بعد النحر ـ إلىٰ مكّة؛ ليؤدّوا الطواف والسعي، ثمّ يعودوا أدراجهم إلىٰ منىٰ، ويمكنك أن تقضي ثلاثة أيّام بليلتيها في منىٰ، ثمّ تتوجّه عصرَ اليوم الثاني عشر إلىٰ مكّة لإتمام المناسك

مرّة واحدة.

ونودّ الإشارة إلىٰ أنّ العادة جارية ـ في عصرنا ـ علىٰ إقامة المؤتمرات والاجتماعات في أرض منىٰ؛ للبحث وتبادل الآراء في أُمور المسلمين، وهو أمر مقبول إجمالاً، شريطة أن لا يكون مظهراً خالياً من المحتوىٰ، وكلاماً لا يقترن بالعمل، أو يكون ـ لا قدّر الله ـ مخالفاً لمرضاة الله ومصلحة المسلمين.

رمي الجمار:

وهو تدريب رائع لبعث روح الجهاد ضدّ العدوّ، فالجمرات الثلاث معالم للشرّ والخبث، وهنا التحم إبراهيم مع وسوسة الشيطان في صراع مرير، ثمّ ظهر على الشيطان، وليس المقصودُ من رمي الأحجار التافهة، ضربَ معلم الشرّ (البناء) البارز، بل هو إعداد نموذجيّ للبشريّة من أجل خوض الصراعات المستمرّة في جميع ميادين الحياة.

وميدان الرمي هذا ـ علىٰ حدّ تعبير حافظ عامر بيك ـ مكان لصناعة اليد المحاربة. فالرمي باليد مباشرة يوجد فيك ملكة الكفاءة القتالية، ومتابعة العدوّ، والتهديف الدقيق، وإنّ يداً ـ كهذه اليد ـ سوف تكون نافعة وقادرة علىٰ حلّ المشاكل في مستقبل الحياة.

الأُضحية:

هذه السنّة العظيمة لإبراهيم خليل الله، والذكرى الخالدة لفداء إسماعيل تذكّر أنّ شيخاً طاعناً في السنّ قضىٰ سنين عمره الشريف في السعي، والجهاد، والهجرة، والإعراض عن المال والولد، وها هو ـ في أواخر عمره ـ يؤمر بتقريب ونحر ولده الحبيب الذي أصبح ـ الآن ـ شمعة تضيء لهذا الشيخ الكبير ظلام الحياة على حين انقطاع الأمل، وعندما عزم إبراهيم ـ صادقاً ومن أعماق قلبه ـ على التضحيّة بولده، وتلّه للجبين مُمِرّاً المدية علىٰ نحره، نودي بما أخبرنا به القرآن: ﴿**وناديناه أن يا إبراهيمُ ● قد**

صدقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين ●...● وفديناه بذبح عظيم ....﴾[٤]، وجاء الفداء، وأُمر إبراهيم بذبح الكبش مكان ولده.

ومن هنا فإنّ نحر الأُضحية ـ وهو آخر أعمال الحاجّ في حال الإحرام ـ إلىٰ جانب كونه إحياءً لذكرىٰ فداء إبراهيم العظيم في مقابل تلك التضحية التي تحيّر العقول وتأخذ بالألباب، فإنّهُ يعلّم الحاجّ التضحية بماله في سبيل الله، تضحيةً تعود عليه وعلىٰ سائر المسلمين بالنفع المادّي، **﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾**[٥].

وعلى المسلمين في العالم أن يسعوا بتعاونهم وتخطيطهم المشترك ـ إلىٰ إكمال مشروع تجميد لحوم الأضاحي وتعليبها، بشكل يضمن التطبيق الكامل لحكمة هذا التشريع الواردة في القرآن الكريم، ويحول دون الإسراف وإفساد هذه اللحوم ودفنها في التراب، حتّى لا يتسبّبوا في تضييع هذه المنفعة العامّة.

التقصير:

هو أحد مناسك عمرة الحجّ، وبه تختم العمرة، فهو خاتمة مقطع من الحجّ، ويؤدّى بأخذ مقدار من شعر الرأس، أو اللحية والشارب، أو تقليم الأظفار.

ويحل لك ـ بعد التقصير ـ كثير من محرّمات الإحرام، ولكنّك لستَ محلاً بالكامل بعدُ، ولا تزال غير قادر على الاستجابة لكلّ غرائزك الشهوانيّة الأساسيّة، إذ إنّ حرمة التعطّر والجماع مستمرّة إلىٰ ما بعد التقصير في مقطع من الحجّ.

ويمكن أن يكون التقصير علامة علىٰ أنّك وفّقت ـ إلىٰ حدّ ما ـ في مرحلة تطهير الجسد والروح، وها أنت يجب عليك ـ لتنجح نجاحاً كاملاً ـ أن تؤدّي قسماً آخر من المناسك في منىٰ، ومكّة أيضاً. إذن، فإنّ للأمل والرجاء ـ هنا في منىٰ ـ تجلّياً خاصّاً، فهل ـ تُرىٰ ـ سمّيت منى بمنى لهذا السبب؟!

أورد كلّ من محمّد الغزالي في

إحياء علوم الدين، والفيض الكاشاني في المحجّة البيضاء بعض المطالب، وإليك منتخباً ممّا تحتويه:

الطواف صلاة. احفظ مراتب التعظيم والتكريم والخوف والرجاء والمحبّة. ها أنت كالملائكة الذين يطوفون بالعرش الإلهيّ، ولا تحسب أنّ المقصود طواف بدنك في أطراف البيت، بل المقصود طواف قلبك بذكر صاحب البيت، فلا تبدأ ذكراً ولا تختمه إلّا باسمه، كما أنّ الطواف يبدأ من البيت وينتهي إلى البيت واعلم أنّ جوهر الطواف طواف القلب بالحضرة الإلهيّة، وما البيت إلّا مثال ظاهريّ في عالم الملك للحضرة الربوبية التي لا ترىٰ بهذه العين، كما أنّ الجسد مثال ظاهري للقلب[٦] في عالم الشهود، ولابدّ من معرفة أن عالم الملك والشهود العالم الحسي يرقىٰ درجة بعد درجة لمن فتحت له الباب.

وما ورد في الأخبار من أنّ في السماء بيتاً وضع قبالة الكعبة، يسمّىٰ بالبيت المعمور، تطوف حوله الملائكة كما يطوف الناس حول الكعبة، فيه إشارة إلىٰ هذه الموازنة والمسانخة بين عالم الملك والملكوت.

وبما أنّ أكثر الناس قاصرون عن الوصول إلىٰ هذه المرتبة من الطواف، فقد أُمروا بالتشبّه ما وسعهم ذلك. (إلىٰ هنا ينتهي ما انتخبناه من محتوىٰ كلام الغزالي).

فالطواف هو بيت القصيد الرقيق والمتغلغل إلىٰ أعماق القلب، من ملحمة الحجّ الرائعة.

الطواف تبلور لمقام القرب والوصال بين العابد والمعبود، وينفرد الطواف مع صلاته عن بقيّة المناسك باشتراط الطهارة فيهما، فلا يجب على الحاجّ الوضوء أو الغسل (إذا صدر منه أحد موجباته) لسائر أعمال الحجّ الأُخرىٰ، كما لا تشترط الطهارة من الحيض في المرأة ـ لغير الطواف وصلاته.

الطواف حول البيت عدل وموازن للصلاة، فالصلاة هي الطواف بصورته الساكنة مقابل الكعبة،

والطواف هو الصلاة ـ بصورتها المتحرّكة ـ حول البيت.

وتقريب هذه الصورة أكثر، افترض أنّ الكعبة مركز لدوائر كثيرة يحيط بعضها بالبعض الآخر، أوّلها المطاف ـ وهو أقرب وأصغر دائرة ترسم بالطواف حول البيت ـ وآخرها ما يستدير في أقصىٰ نقاط الأرض المختلفة، وتتشكّل هذه الدوائر من المصلّين الذين يتوجّهون من جهات هذا العالم الأربعة إلى الكعبة المكرّمة، ولو أنّك أمعنت النظر في دائرة من هذه الدوائر، لرأيت أنّ المصلّين في حالة من الطواف، غير أنه طواف ساكن بصورة الصلاة.

ومن جهة أخرىٰ فإن الطائفين حول البيت يشكّلون دائرة بالطواف أيضاً، وهم بهذا الطواف يقومون بتصوير وعرض كلّ الدوائر التي يرسمها المصلّون في أرجاء الأرض وكلّ واحد من المصلّين ـ في أيّ قوس، ومن أيّ دائرة ـ ما هو إلّا ممثّل لطواف الطائفين بالبيت، كما أنّ الطائفين بالبيت يمثّلون بطوافهم صلاة المصلّين في جميع أرجاء الأرض.

فأنت ـ أينما ومتىٰ وقفت للصلاة ـ قوس من دائرة أقواسها الأخرىٰ في شعاعك، وهذه الدائرة ـ حتّىٰ في أبعد فاصلة من الكعبة ـ ما هي إلّا تمثيل لدائرة الطواف الصغيرة بمقياس أوسع وأكبر.

والطائفون المتحرّكون الحاضرون في المسجد الحرام، هم ـ أيضاً ـ المجسّدون للدوائر الكثيرة المتكررة من الطائفين الساكنين، والمنبثّين في أرجاء العالم، الغائبين عن البيت.

يتّضح بهذا أنّ الطواف حول البيت ليس أمراً ينفرد به حجاج البيت؛ فالمصلون أينما وقفوا ـ في أي شعاع، وأيّ دائرة، صغيرة كانت أو كبيرة ـ كأنّهم يطوفون بالبيت طوافاً ساكناً في صورة الصلاة.

وباختصار: فإنّ الطواف صلاة متحرّكة، والصلاة طواف ساكن. والصلاة والطواف عبادة واحدة تؤدّى

بشكلين، أو هما روح واحدة في بدنين.

ويمكننا القول ـ زيادة في التوضيح ـ إنّ الانجذاب والعشق يتجلّيان في أفعال العاشق بصورتين مختلفتين: فطوراً بالهدوء والتأمّل والانفراد والترنّم بأسرار الحبّ، وطوراً بالنهوض والحركة والعجز عن امتلاك زمام النفس، التجلّي الأوّل هو الصلاة، والتجلّي الثاني هو الطواف.

الطواف والصلاة مظهران لأطهر وأقدس وأروع حالات الإنسان، وأكثرها جذباً وروحانية وملكوتية، (الصلاة معراج المؤمن).

وليست هناك حالة أُخرىٰ ينتفع فيها الإنسان إلىٰ هذا الحدّ بالوصال والقرب التام من سرّ الخلق، وكنه الوجود، ومعشوق العالم، ومعبود الكلّ.

الطواف ـ من زاوية أُخرىٰ ـ تصوير للسير الدائري لكلّ نظام الخليقة علىٰ محور الخالق الذي منه يبدأون وإليه ينتهون. الطواف تجسيد للسير الدائري ـ المحيِّر، والحائر ـ لكلّ ذرّات عالم الوجود.

والطواف ـ في الوقت نفسه ـ بدايةٌ لدوران جديد، وعثورٌ جديد على المحور، يعيد حياة الإنسان المنفصل عن الحقيقة والدائر علىٰ محاور الدنيا الباطلة، إلى الدوران علىٰ محور الحقّ والعدل والطهارة. وإذا ما كان المحور الذي تدور عليه حركتنا وأعمالنا هو الحرص والطمع، وهذه الأهداف الدنيوية الفانية المادّية، فإنّ الطواف هو المغيّر لهذا المحور الذي تدور عليه حياتنا.

وفي الطواف رمز آخر، وهو أنّهُ يدعو الإنسان ذا الأُفق الضيّق والبعد الواحد إلى النظر من جميع الجوانب، ويجلب انتباهه إلىٰ جميع الجهات.

الطواف سير في اللانهاية، ودوران من الحقّ إلى الحقّ، وأنت تصبح بهذا السير إنساناً لا يهدف إلّا إلى الحقّ، ولا يدور إلّا علىٰ محور الحقّ يفضل الطواف كالصلاة معراج للمؤمن. الطواف الصلاة في عرضه للحركة وعدم الاستقرار، والصلاة

تفضله بتجسيدها للهدوء والتأمّل.

الحجر الأسود:

حجر أسود، لا يتميّز ـ بطبيعته ـ علىٰ غيره من الأحجار، خلق بشكل غامض ومجهول، وعرّف بأنّهُ يمين الله.

الحجر الأسود بمنزلة العَلَم الذي لا يختلف عن نظائره بشكله وصناعته الظاهرية، ولكنهُ رمز يعكس كلّ تأريخ الأمة ووجودها وشرفها.

تصوّر البعض أنّ استلام الحجر يشبه احترام أو تحية العلم، وهو أمر معتاد ومرسوم في جميع الدول، ويبدو أنّ هذا التصوّر صحيح، وينسجم مع الروايات التي عبّرت عن الاستلام بأنّهُ (مصافحة مع الله) أو ما يشبه ذلك.

والحجر ـ في تصوّر بعض آخر ـ هو قلب البيت، فكأنّ كلّ ما هناك من قدس وجلال ومعنوية وجاذبية وعظمة ينبعث من هذا الحجر إلىٰ جميع أرجاء البيت. ومن البيت إلى المسجد، ومن المسجد إلىٰ مكة، ومن مكة إلى الحرم، ومن الحرم إلىٰ جميع أنحاء العالم، فقلب المعنوية نابضٌ في الحجر، ومنه تسري المعنوية إلى البيت، والبيت قلب المسجد النابض؛ والمسجد قلب مكة الذي يضخّ المعنوية والقدسية في عروقها، ومكة ـ بدورها ـ تسقي منطقة الحرم، ومن هذا المركز المطهّر المضيء (الحرم) ترتوي كل أرجاء العالم من نبع التوحيد الأصيل.

والحجر ـ من خلال رؤية أُخرىٰ ـ رمز لوحدة البشريّة، فكأنّ جميع الناس علىٰ هذه الأرض، يعلنون ـ باستلامهم الحجر ـ الوحدة في التراب والوطن، فالكلّ من أرض واحدة، ولا حدود تفصل بين أوطانهم، وعند هذا الحجر الأسود يُعلَنُ أنّ الناس من عرق واحد وتراب واحد وطبيعة واحدة(٧).

السعي بين الصفا والمروة:

السنّة أن يتوجّه الحاجّ بعد الطواف إلىٰ بئر زمزم، ويشرب من مائه، ثمّ يذهب إلىٰ جبل الصفا، ليبدأ

سعيه إلى المروة، بأدعية طويلة رائعة تعبق بذكرى الروح الملكوتية لآخر سفير من سفراء الوحي الإلهيّ.

الصفا، هو ذكرىٰ أوّل نداءٍ أعلن عن نبوّة خاتم الأنبياء محمّد (صلّى الله عليه وآله وصحبه المنتجبين).

والسعي من هذا الجبل إلىٰ ذاك الجبل ـ إضافةً الىٰ كونه تجديداً لقصّة هاجر أمّ إسماعيل في بحثها المتواصل المنهك عن الماء لولدها الرضيع ـ يصوّر حالة الخوف والرجاء التي تعتري الزائر في الحجّ.

وليس هناك في العالم فاصلة بين جبلين كهذه الفاصلة القصيرة بين الصفا والمروة، تثير في النفس كلّ هذه الخواطر الروحانية والملكوتية.

فما الذي تريده من السعي بين الصفا والمروة؟ أتريد الذهابَ من جبل إلىٰ جبل بحثاً عن الحبيب، أو طلبَ القرب علىٰ حال من نفاذ الصبر والاضطراب، أو تجسيد حالة الحيرة بعد الظفر بالقرب في الطواف؟

الحاجّ ـ في هذا المنسك ـ يظهر سعيه المتواصل والمكرّر للاستمرار في طريق الوصال، ويبدي اضطرابه. وفي الهرولة ـ بشكل خاص ـ مدّ وجزر روحيّ، ويتّضح انعكاس هذا المدّ والجزر علىٰ كلّ أعضاء بدن الساعي؛ بما يعتريه من قلق ونفاد الصبر. كما أنّ الهرولة ـ من جهة أُخرىٰ ـ تلقي عن كاهل الإنسان أثقال الكبر والأنانيّة وحبّ الذات. وقد جاء في الرواية: «ما لله ـ تعالىٰ ـ من منسك أحبّ إلى الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ من موضع المسعىٰ؛ وذلك أنّهُ يذلّ فيه كلّ جبّار عنيد[٨].

الهوامش :

(١) آل عمران: ٩٦.
(٢) راجع الرسائل العمليّة.
(٣) البقرة: ١٩٨.
(٤) الصافّات: ١٠٤ـ١٠٥ـ١٠٧.
(٥) الحجّ: ٢٨.
(٦) المراد من القلب في هذه الموارد، الجوهر النفسانيّ المجرّد، المتّحد مع نفس الإنسان.
(٧) فلسفة الحجّ، حافظ عامر بيك.
(٨) علل الشرائع.